حوار مع: أ.د. محمد أبلاغ[1]

تاريخ العلوم مفتاح التعرف على التراث في كليته.

A conversation with Professor Dr. Muhammad Ablagh on the history of sciences as the key to a cognisance of the tradition

حاورته هيئة تحرير المجلة

By the editorial board

(١) يُعد الدكتور محمد أبلاغ أحد الباحثين المشتغلين بتاريخ العلوم وتاريخ الرياضيات على وجه الخصوص؛ يتميز بكتاباته الرصينة باللسانين العربي والفرنسي، فهو حاصل على شهادة الدراسات المعمقة في فلسفة وتاريخ العلوم من جامعة باريس ١، (پانتيون- سربون) سنة ١٩٨٤ ودكتوراه في الفلسفة من الجامعة نفسها سنة ١٩٨٨ كما حصل على شهادة المدرسة التطبيقية للدراسات العليا في السنة نفسها، هذا بالإضافة إلى دكتوراه الدولة في الفلسفة من كلية الآداب والعلوم الإنسانية من جامعة مولاي عبد الله بمدينة فاس سنة ٢٠٠٧. وفوق ذلك فهو عضو في لجنة تاريخ الرياضيات بإفريقيا التابعة للاتحاد الرياضي الإفريقي والمسؤول عن ترجمة النشرة إلى اللغة العربية للجنة تاريخ الرياضيات بإفريقيا (AMUCHMA). ومن أهم كتبه على الإطلاق رفع الحجاب عن وجوه أعمال الحساب لابن البنا المراكشي، تقديم ودراسة وتحقيق، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، ظهر المهراز-فاس. ١٩٩٤، بالإضافة إلى عشرات المقالات باللغتين العربية والفرنسية منشورة في مجلات أكاديمية محكمة.

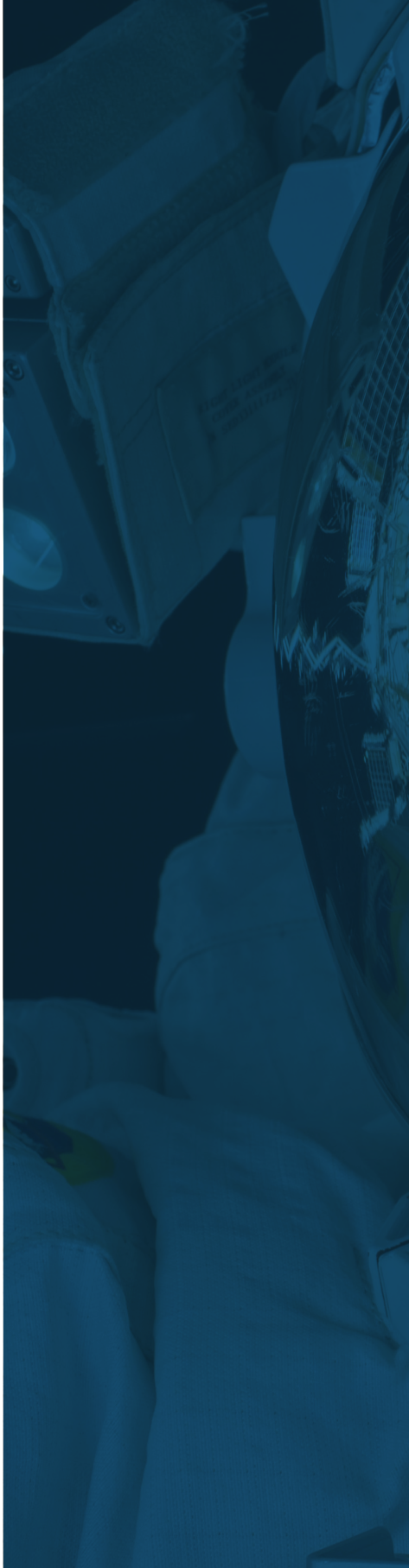

هل يمكن أن تحدثونا عن تجربتكم في تاريخ العلوم؟ وما الدوافع التي دفعتكم لهذا ا لتخصص ؟

أود في البداية أن اتوجه لكم بجزيل الشكر والامتنان على هذا الحوار الذي سيسمح لي بالحديث عن المجال الذي اشتغل عليه وهو مجال تاريخ العلوم. فالدوافع التي دفعتني إلى الاهتمام بهذا المجال متعددة، وحتى لا أطيل على القارئ الكريم، أقول إن السبب هو غياب الاهتمام بتاريخ العلوم كثقافة في مختلف المشاريع الفكرية العربية الإسلامية الحديثة والمعاصرة. فعندما نتحدث عن الفكر العربي الإسلامي عادة ما نقصد به من جهة العلوم التي تجد أسسها النظرية والعملية في القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة، أو تلك المنبثقة من اللغة العربية، ثم الفلسفة كمجال نظري وارد. فلن تجد حديثًا عن العلم في الإسلام في مشروع كمشروع طه عبد الرحمن أو عبد الله العروي أو أركون، بل الجابري يضع العلم على هامش الثقافة العربية الإسلامية في مشروعه الفكري «نقد العقل العربي»، مرد ذلك هو الانفصال التام الذي عرفته القرون الأخيرة بين مجالات الآداب والعلوم الإنسانية والمجالات القانونية ومجالات العلوم الحقة، فانفصلت في الأذهان كل علاقة يمكن أن تربط بين العلم من جهة والمجالات الفكرية الأدبية والإنسانية والقانونية من جهة أخرى، عكس ما كان عليه الأمر في الماضي حيث إن العلم كان ينظر إليه كجزء لا يتجزأ من الفكر الإسلامي، نظرًا للتشابك الكبير بين العلوم ومختلف مجالات الفكر سواء منه العقلي أو النقلي في الإسلام.

هذا من حيث الدوافع التي ذكرت بعضها فقط، أما من حيث الاستفادة فترجع إلى كون مكانة العلم هي المؤشر إما على تقدم أو على تخلف حضارة ما، لأنه أعلى ما تنتجه عندما تكون في أوج قوتها العسكرية وتقدمها الفكري وازدهارها

الاقتصادي، وهو أثمن ما تتخلى عنه في مراحل الضعف العام في جميع المجالات وهو أمر واضح عندما نقرأ مقدمة ابن خلدون.

وبما أنه أعلى ما تصل إليه الحضارة في أوج قوتها، فالاهتمام بتاريخ العلوم يلزم عنه بالضرورة الاشتغال في واجهات عدة، ففضلًا عن التعرف على الإنتاج العلمي الذي أنتجه المسلمون خصوصًا في مراحل قوتهم، يتطلب الأمر أيضًا التعرف على شروط إنتاج المعرفة العلمية، بمعنى أسباب اهتمام المسلمين بالعلوم، وبما أننا لا نزال إلى اليوم في مرحلة جمع هذا التراث الهائل الذي خلفه الأجداد لنا، فالأمر يتطلب الرجوع إلى التراث المخطوط لتحقيقه وتحليله مع ما يتطلبه ذلك من تحكم في آليات المنهج الفيلولوجي. وبذلك نستطيع القول بأن الاستفادة هي من حيث إن تاريخ العلوم يتيح لنا التعرف على التراث في كليته، فهناك تكامل بين كل المجالات وهناك دراسة للتاريخ بمعناه الكلي، وفي ذلك استفادة كبيرة جدًّا بالنسبة للدارس.

ما مدى حاجة المجتمعات العربية والإسلامية اليوم إلى تاريخ العلوم؟ وما أهمية تاريخ العلوم؟ وهل يمكن الوصول إلى فهم العلم دونما فهم تاريخه؟

لشرح مدى حاجة المجتمعات العربية الإسلامية اليوم إلى تاريخ العلوم سأنطلق من الآية القرآنية الكريمة: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَادُواْ وَٱلصَّٰبِـُٔونَ وَٱلنَّصَٰرَىٰ وَٱلۡمَجُوسَ وَٱلَّذِينَ أَشۡرَكُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ يَفۡصِلُ بَيۡنَهُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ شَهِيدٌ ١٧﴾ (الحج: ١٧) فهذه الآية الكريمة تبين أن الأساس في التاريخ الإنساني هو الاختلاف لا الوحدة، فالإنسانية أمم مختلفة وسيكون الأمر كذلك إلى يوم القيامة إلى أن تتحقق الغاية من الوجود الإنساني في الكون. فالأمم بأسسها الدينية ومرجعياتها الفلسفية وبثقافتها سواء العالمة أو الشعبية هي أمم مختلفة لأن الاختلاف هو أساس التقدم والازدهار لما يتيحه من تلاقح وتخصيب للأفكار. وبذلك ما الشيء المشترك فيما بينها؟، سنجد أنه العلم. فالقوانين الرياضية هي قوانين واحدة لا تتغير من لغة إلى أخرى وقوانين الفيزياء في إطار براديغم معين لا تتغير؛ فهي واحدة سواء أكنت في اليابان أو في المغرب أو في أي مكان آخر من العالم. فعندما تطلب من مجموعة من الطلبة ترجمة بيت شعر من لغة إلى لغة ستجد إجابات مختلفة، أما قوانين العلم فستجدها واحدة.

معنى هذا أن تاريخ العلوم هو طريقنا كحضارة إسلامية معاصرة للتفاعل الإيجابي مع العالم والمشاركة في التحديات المطروحة عليه والآمال التي يصبو إليها.

هذا إن شئنا من الناحية الكونية العامة فيما يخص علاقتنا بالأمم الأخرى، أما من حيث أهمية تاريخ العلوم بالنسبة لنا، فسأقول وبدون مبالغة إنه لا يمكن أن تتشكل لدينا

رؤية موضوعية وتامة عن تراثنا إن نحن أهملنا المساهمة الإسلامية الهائلة في تاريخ العلوم، وهذا الحوار سيطول كثيرًا لو أنني أردت أن أتحدث عن المساهمة الإسلامية في الرياضيات خصوصًا في الجبر والمقابلة أو نظرية الأعداد أو التحليل التوافقي أو حساب المثلثات أو الفلك أو غيرها من المجالات التي طور فيها المسلمون ما ورثوه عن الحضارات السابقة عليهم خصوصًا الحضارتين اليونانية والهندية. لذلك أكتفي بالقول بأنه بسبب عدم إدماج الأعمال التي عرفت بالعلم في مرحلته العربية الإسلامية والتي أنجزت في العقود الأخيرة تم تبني كثير من الأفكار المغلوطة عن الفكر الإسلامي، كالقول مثلًا بأن الحضارة العربية الإسلامية هي حضارة فقه، في مقابل الحضارتين اليونانية والأوروبية اللتين اعتُبرتا حضارة علم وفلسفة.

في حين أن ما أنجزه المسلمون في مختلف المجالات العلمية يفوق بكثير كل ما أنتجته الحضارات السابقة عليهم مجتمعة. بل في بعض المراحل التاريخية فاق الإنتاج العقلي الإنتاج النقلي، يكفي للمرء أن يقارن مثلًا الإنتاج المغربي في القرن ١٤م في مجال الرياضيات والفلك وسيجد أن ما أنجز في هذه المنطقة وحدها في هذين المجالين يفوق بكثير ما أنجز في مجالات العلوم النقلية المختلفة.

وبالنسبة للشق الأخير من سؤالكم، فالعلم كتقنية لا يحتاج إلى تاريخه لفهمه والبراعة فيه وهو أمر واضح فالرياضي يكون في الغالب بارعًا في الرياضيات دون أدنى معرفة بتاريخها، ولكن العلم كفكر وكثقافة فلا يمكن فهمه دون فهم تاريخه وهو السبيل إلى جعل العلماء المنخرطين في الحركة الثقافية لبلدهم، كما كان الأمر في السابق عندما نجد أن كثيرًا من الرياضيين في السابق، كانوا يجمعون بين البراعة في الرياضيات وفي الفقه أو علوم القرآن الكريم والتفسير، أو الرياضيات وعلوم اللغة العربية أو الرياضيات والفلسفة وغيرها.

انطلاقًا من عبارة لابن صاعد في طبقات الأمم يرى فيها «أن الأندلسيين برعوا في علوم التعاليم» والذي يفيد الإطلاق في نسبة البراعة في علوم التعاليم إليهم، فإلى أي مدى يصح هذا الإطلاق؟ وهل هذا يعني أن العلم وخصوصًا العلوم الحقة كانت تحتل مكانة مهمة؟

أشكركم جزيل الشكر على هذا السؤال لأنه سيتيح لي أن أتحدث عن العلوم في الحضارة العربية الإسلامية من الناحية الابستملوجية، باختصار شديد سنجد أنه بعدما قَعَّد أرسطو وتلامذته فيما بعد المنطق، ستتشكل لدينا مدرستان في تاريخ الفلسفة: مدرسة الأفلاطونية المحدثة التي تعتبر الرياضيات كآلية للفلسفة والمدرسة المشائية التي تعتبر المنطق آلية للفلسفة، وورث المسلمون هذا التأرجح بين الرياضيات والمنطق فيما يخص

الدرس الفلسفي، إلى أن جاء الفارابي في منقلب القرنين ٩م و١٠م وشرح كتاب البرهان في المنطق لأرسطو الذي كما نعرف هو مفتاح فهم العلمين الطبيعي وما بعد الطبيعة. فلذلك عندما بدآ من القرن ١٠م بدأ الاهتمام الجدي بالعلوم في الغرب الإسلامي خصوصًا بالأندلس، ساروا في هذا الطريق المشائي الذي ينظر إلى كل أجزاء الفلسفة كمجال واحد متدرج في التعليم، حيث نجد أن البدء في التعليم يكون بالمنطق لأنه يقدم لنا الآلية أو المنهج لفهم العلوم، ثم تأتي علوم التعاليم (علم العدد والهندسة والفلك والموسيقى) وسميت رياضيات لأنها تعمل على ترييض النفس الناطقة لتقبل الحقائق، بعدها يأتي العلم الطبيعي ثم بعده نجد علم ما بعد الطبيعة كتتويج نهائي للفلسفة ولا يستحق أن يسمى الفيلسوف فيلسوفًا إلا عند التمكن منه.

فالجميل في الأمر أن صاعدًا الأندلسي أرخ لعلماء عصره كجماعة علمية وليس كأفراد وهو ما يشير إلى المكانة المهمة التي كانوا يحتلونها في الأندلس في القرنين ١٠م و١١م، فاعتبر أنهم اهتموا بعلوم التعاليم ووصلوا فيها إلى نتائج مهمة، ولكنهم لم يصلوا إلى مستوى الاهتمام بالعلوم الأعلى من الرياضيات التي هي العلم الطبيعي وما بعد الطبيعة، إلا أفرادًا منهم على رأسهم الرياضي الشهير المؤتمن بن هود ملك سرقسطة صاحب الكتاب الجامع للهندسة كتاب الاستكمال.

صاعد الأندلسي توفي سنة ١٠٦٩م، فما الذي وقع بعد وفاته؟، هل استطاعت الجماعة العلمية الانتقال من الاهتمام بالرياضيات إلى الاهتمام بالعلم الطبيعي وما بعد الطبيعة؟ نعم ذلك ما سيقع بعد وفاة صاعد الأندلسي سيأتي ابن باجة (ت. ١١٣٨م) الذي سيجمع بين الاهتمام بالمنطق والرياضيات والعلم الطبيعي، وبعده ابن رشد الحفيد (ت. ١١٩٨م) الذي سيضيف إلى هذه الاهتمامات الاهتمام بعلم ما بعد الطبيعة.

فالمهم في عمل صاعد الأندلسي كما قلنا هو أنه نظر إلى علماء عصره كجماعة علمية يجمعها كلها الاهتمام بالرياضيات، تلقفت الأجيال اللاحقة عليهم هذا الاهتمام في إطار البراديغم الأرسطي فاهتمت بالعلم الطبيعي وعلم ما بعد الطبيعة، مما يدل على أن النظر في العلوم كان جزءًا لا يتجزأ من الثقافة الإسلامية في هذه المنطقة.

هذا التصور أي النظر إلى العلماء كجماعة علمية يشتغلون بآليات معينة وفي إطار تصور واضح، هو الذي سيساعدنا لفهم بدقة ماذا وقع بعد ابن رشد؟ فالرد على التاريخ الرسمي لتاريخ الفلسفة الذي يرى أنه بمجرد وفاة ابن رشد توفيت الفلسفة في العالم الإسلامي للانتقال لأوروبا، سعى بعض الباحثين إلى تفنيد هذا الرأي من خلال التنبيه على بعض الكتابات في علم الكلام والمنطق التي أنجزت بعد وفاة ابن رشد، اعتبر أن هذا الطريق لا

يفي بالمقصود وهو ناتج عن النظر إلى العلم كأنه لا علاقة له بالفكر والثقافة. فلو نظرنا إلى العلوم كجزء لا تتجزأ من فكرنا وثقافتنا لعرفنا أن ما حدث بعد وفاة ابن رشد هو تغير تام في البراديغم بسقوط البراديغم الأرسطي - الرشدي وظهور براديغم جديد يقوم جدلية التناهي الإنساني واللاتناهي الإلهي، المستمد من ثنائية التناهي واللاتناهي الرياضي الذي من خلاله تم التمييز بين طور العقل وما يفوق العقل من أمور ربانية وهو تمييز رسم حدود ومجال العقل الإنساني الذي هو الإنسان والطبيعة وما هو فوق العقل الذي مجاله الإيمان الديني. وما كان هذا ليتم لولا تعويض الرياضيات للمنطق على المستوى الآلي. ففي بداية الإجابة عن هذا السؤال أشرت إلى أنه بدءًا من الفارابي فرض كتاب البرهان المنطقي لأرسطو نفسه كآلية للعلوم، أما بدءًا من ابن البنا المراكشي (ت.١٣٢١م) فالآلية هنا ستصبح رياضية وبذلك سيتم التعويل كمنهج بالنسبة لمختلف مجالات الفكر على المقالة الخامسة من مقالات كتاب الأصول لأوقليدس الخاصة بالنسبة والتناسب، ولكن الجميل في الأمر هو قراءتها قراءة عددية ككم منفصل لا هندسية ككم متصل، لذلك أرجع ابن البنا المراكشي كل النسب إلى أربعة الأعداد المتناسبة لأن أشياء العالم منفصلة لا متصلة، وهو ما مكنه من استعمال الرياضيات كآلية ليس فقط في المجالات التقليدية التي كانت فيها الحاجة ماسة للحساب كحساب المواريث والمعاملات بل تم توسيع استعمال التناسب الرياضي ليشمل مجالات جديدة بما فيها مجال البيان اللغوي، لينتقل التناسب الرياضي فيما بعد إلى التأسيس لعلم التاريخ على يد ابن خلدون.

كيف تقومون الإنتاج الأكاديمي في مجال تاريخ العلوم؟

عندما نتحدث عن العالم العربي فيما يخص الاهتمام بتاريخ العلوم، فسنجد أنه خلافًا لأوروبا وأميركا التي كان فيها هذا الاهتمام موجودًا منذ الحركة الاستشراقية للقرن ١٩م وهو مستمر إلى اليوم في مراكز البحث والمعاهد وكبريات الجامعات العالمية، الاهتمام بتاريخ العلوم وأقصد بالضبط التحقيق العلمي للنصوص العلمية خصوصًا الرياضية والفلكية منها فهو لم يبدأ إلا في النصف الثاني من القرن ٢٠م، وأستطيع القول بأننا اليوم نتوفر على كثير من النصوص العلمية المحققة، فالمشكلة ليست في هذا الجانب الذي يتطلب بطبيعة الحال القيام بمجهود أكبر في تحقيق النصوص العلمية، بل المشكلة هي في كيفية الاستثمار الثقافي لهذه المنجزات الهائلة فالقيمة أعني قيمة هذه النصوص هي قيمة ثقافية أكثر مما هي علمية، نظرًا لأن العلم من الناحية التقنية -كما نعرف- في تقدم مطرد ولا يمكنك بأي حال من الأحوال تدريس العلم كما درسه الأجداد.

بمعنى آخر أن نجيب بدقة عن موقفنا الفكري من العلم كمسلمين، هل سنظل

نردد قولة عفى عنها الزمان؟ وهي أن هذه العلوم هي علوم دخيلة على تراثنا أو نسقط في النزعة الإسقاطية التي ترى أن كل العلوم مصدرها الإسلام أو التبخيس من الدور الإسلامي في العلوم.

كيف تقيمون مشروع الدكتور رشدي راشد في المركز الوطني للبحث العلمي بفرنسا؟ وهل هناك من مشاريع مشابهة لها في العالم؟

للفهم العميق لمشروع الدكتور رشدي راشد في تاريخ الرياضيات، من الضروري ربطه بالمركز الوطني للبحث العلمي في فرنسا، كعمل مؤسساتي مهيكل له ضوابط محددة. ففرنسا في القرن ٢٠م خصوصًا في النصف الأول منه كانت متأثرة بأعمال الابستمولوجي ومؤرخ العلوم المعروف **غاستون باشلار** الذي يقوم على القول بالقطيعة الابستمولوجية بين العلم الحديث الذي بدأ مع جاليلي وديكارت وكبلر وغيرهم من أقطاب الثورة العلمية الحديثة في أوروبا القرن ١٧م وما قبل هذا التاريخ. فبالنسبة له العلم بدأ في القرن ١٧م وكل ما أنجز قبل هذا التاريخ يدخل في إطار اللاعلم. انعكس ذلك على تاريخ العلوم وبذلك كان الاهتمام منصبًا بالخصوص على العلم الحديث والمعاصر، وأهملت دراسة المراحل السابقة على جاليلي وديكارت لأنها في نظرهم لا تمثل العلم في شيء.

بالتزامن مع أعمال باشلار كانت هناك أعمال الكسندر كويري الذي كتب كتبه بالإنجليزية بعدها ترجمت إلى اللغة الفرنسية، أعماله قائمة على القول بأن الثورة العلمية للقرن ١٧م هي فعلًا ثورة، لأنها غيرت براديغم العلم من القول بعالم متناهٍ مغلق إلى القول بكون لا متناهٍ مفتوح، ولكن هذه الثورة -خلافًا لباشلار- ليست قطيعة فجائية انتقل فيها الإنسان فجأة من اللاعلم إلى العلم، بالنسبة لكويري هي ثورة ولكن مهيئ لها تهيئًا قام فيها الإنسان بجهود جبارة إلى أن وصلنا إلى تحقيق الطفرة النوعية للقرن ١٧م. فهذا الانفتاح على أعمال الكسندر كويري هو الذي دفع بالفرنسيين على الخصوص إلى البحث في أصول الثورة العلمية للقرن ١٧م، الموجودة في أعمال أرشميدس وديوفانتوس وأبولونيوس وغيرهم من الرياضيين اليونانيين، وبما أن كثيرًا من أعمال هؤلاء مفقودة باليونانية موجودة بالعربية، فكان الانفتاح ضروريًا على أعمال الرياضيين المسلمين كالخوارزمي وأبو كامل المصري وابن الهيثم والخيام والسموأل المغربي وغيرهم من الرياضيين الذين كتبوا بالعربية، وبذلك لقي رشدي راشد التشجيع الكامل من قبل المركز الوطني للبحث العلمي الفرنسي، حيث كانت هناك مجموعتان للبحث: المجموعة الأولى تهتم بتاريخ العلوم يرأسها رشدي راشد ومجموعة أخرى تهتم بتاريخ الفلسفة برئاسة جون جوليفيه.

فالأعمال الضخمة التي قام بها رشدي راشد ما كانت لتتم لولا الدعم الكبير الذي

تلقاه من المركز الوطني للبحث العلمي في فرنسا، ففرنسا كانت تريد التعرف على الأسس التاريخية للثورة العلمية، ورشدي راشد، من خلال هذه الأسس أسهم في التعريف أكثر بالمرحلة العربية الإسلامية من تاريخ الرياضيات من خلال تحقيق كثير من الأعمال وتحليل المادة الرياضية لهذه المرحلة، وكتابه الأخير **من الخوارزمي لديكارت دراسات حول الرياضيات الكلاسيكية** مهم جدًّا من حيث إنه اختفت منه عبارة الرياضيات العربية التي كان رشدي راشد يستعملها في كتبه السابقة، فالرياضيات فكر كوني بقوانين لا علاقة لها باللغة المكتوبة بها، وهو ما سمح بإرجاع البدايات الأولى للعلم الحديث لا للقرن ١٧م كما نجد في التاريخ المتمركز حول أوروبا بل البداية الفعلية هي في القرن ٩م مع التركيب البديع الذي قام به المسلمون بين العلوم النظرية اليونانية وعلى رأسها الهندسة والعلوم العملية الهندية وعلى رأسها النظام العشري في الحساب.

أما ما أشرتم اليه فيما يخص المشاريع المشابهة، بالنسبة لأوروبا وأمريكا فالأمر محسوم ما دامت هناك أولوية للبحث العلمي وللعلم بشكل خاص، فإن بعض المؤسسات سواء منها الجامعات أو المعاهد لها فرق بحث في تاريخ العلوم، وتوجه البحث حسب ما تبتغيه من تاريخ العلوم. أما عندنا فما نلاحظه هو الحماس الكبير الذي يصاحب عادة المحاضرات التي تبين مساهمات المسلمين في مجال العلوم الحقة، ولكن لا شيء بعد الحماس. فإن أردنا فعلًا أن يكون الاهتمام بتاريخ العلوم عند المسلمين اهتمامًا مستمرًا ومثمرًا في الوقت نفسه فلا بد أن يكون مندرجًا في إطار مشروع ثقافي واضح وفي إطار فرق بحث قوية راقية تكون في نفس مستوى فرق البحث العالمية، وهذا هو السبب الذي جعلني أربط مشروع رشدي راشد بتاريخ وتطورات اهتمام المركز الوطني الفرنسي للبحث العلمي.

أشرتم في بعض مقالاتكم إلى أن معرفتنا بابن رشد لا تزال ناقصة؟ فمن أي جهة مأتى هذا النقصان؟

الملاحظ أنه في العقود الأخيرة لأسباب لا حاجة لي بذكرها هنا، كثر الحديث عن ابن رشد وهل خطابه برهاني أم حجاجي؟ وهل هو فيلسوف أم متكلم؟، وعن كونه يستعمل قياس الغائب على الشاهد بالرغم من انتقاده له، وبسبب كل هذا ينتصر بعض الباحثين للغزالي على ابن رشد، وأنجزت كثير من الأطروحات الجامعية في هذا الاتجاه، كأننا في حلقة مفرغة سنظل ندور فيها إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها. كمؤرخ للعلوم أنظر لابن رشد من منظور آخر، لأننا اليوم بحاجة ماسة لتحقيق قطيعة ابستملوجية مع فكر القرون الوسطى للانخراط في مشكلات العصر الذي المسلمون جزء لا يتجزأ منها، بل يسهمون في بناء العالم اليوم دون الاعتراف بمساهمتهم في عملية البناء هذه. بكل بساطة ابن رشد فيزيائي والقول الفيزيائي لا

يكتمل إلا ميتافيزيقيا، لأن العقل البشري عقل محدود لا يمكنه تصور كل الوجود. كل «حقيقة فيزيائية» تطرح مشكلة ميتافيزيقية، فجاليلي وأينشتاين مثلًا ينطلقان من الشاهد لإثبات الغائب، في حين أن هوبكنز مثلًا ينطلق من الشاهد لنفي الغائب وهكذا. فعندما تقول بالبيغ بانغ مثلًا، السؤال الذي سيتبادر للذهن مباشرة وماذا كان هناك قبل البيغ بانغ؟ وفي عالم لا متناهٍ لا مركز له أين وقع هذا البغ بانغ؟، وتطرح هنا أيضًا مشكلة المكان. فاليوم الفيزياء تطرح مشكلات ميتافيزيقية فلماذا ننتقد ابن رشد، علما بأنه يقول بعدم التماثل بين العلم الإنساني أي كيف يفهم الإنسان الوجود والعلم الإلهي المطلق بالوجود وهو ما لا نجده عند المعاصرين.

وبطبيعة الحال السبب في عدم الانتباه إلى أن ابن رشد فيزيائي هو كونه يستعمل المنطق كآلية لدراسة العالم الطبيعي، في حين أن بدءًا من جاليلي تحولت الفيزياء إلى استعمال الرياضيات كآلية بدل المنطق فحصل تطور في الفيزياء جعل كل ما أنجز قبل جاليلي بمثابة لا علم بما فيها كل النسق الأرسطي - الرشدي.

أما منطلق هذه الدراسات التي لا تزال في بداياتها فهي مقارنة النسق المنطقي لابن رشد القائم على التجانس والذي أدى إلى إقصاء كثير من مجالات المعرفة الإنسانية سواء العقلية أو النقلية، بالنسق الفكري لابن البنا المراكشي الذي عوض المنطق بالرياضيات وانفتح بذلك على معارف كان يقصيها ابن رشد كتفسير القرآن الكريم وعلوم اللغة وعلم الفلك العملي والتصوف.

لوحظ منذ مدة ليست بالهينة انفتاح مجموعة من المؤسسات الجامعية ذات الاهتمامات الشرعية كمؤسسة دار الحديث الحسنية التابعة لجامعة القرويين وكذا أكاديمية نماء للعلوم الإسلامية والإنسانية التي تعتمد التعليم عن بعد على الفلسفة وتاريخ العلوم في نظركم كيف تنظرون إلى هذا الاهتمام؟ وهل هذا الانفتاح مفيد لدارس العلوم الشرعية؟ وما تجليات هذا الانفتاح؟

أنا متفائل جدًّا بهذا الانفتاح الذي نجده في دار الحديث الحسنية وكذلك اليوم في أكاديمية نماء للعلوم الإنسانية والإسلامية لأنني كما رددت كثيرًا في هذا الحوار، نحتاج إلى مؤسسات ترعى الفلسفة وتاريخ العلوم، خصوصًا أن الموقف من الفلسفة على الخصوص، مبني على سوء فهم لها سببه للأسف الشديد بعض المشتغلين بالفلسفة أنفسهم. فعندما نقرأ الفكر الإسلامي في عصر الذهبي نجد أن هناك تشابكًا بين المعارف، فالرياضي قد يكون مفسرًا للقرآن الكريم وفقيهًا أو متكلمًا وبالنسبة لي لا

فرق بين العلوم الشرعية وغيرها، ما ننساه كثيرًا هو أن الموقف من العلوم تطور مع الوقت، نعم في البداية كان هناك موقف سلبي من الفلسفة والعلوم لأن المسلمين تعرفوا عليها كخليط فكري، ولكن مع الوقت وبفضل جهود العلماء والفلاسفة تم شيئًا فشيئًا دمج العلوم في جسم الثقافة العربية الإسلامية نفسها، ففي البداية كانت العلوم الشرعية محتاجة لها، فالمواريث كجزء من الفقه محتاج في حل بعض مسائله للجبر والمقابلة، وحساب المثلثات مهم بالنسبة لتحديد القبلة والفلك لرؤية الأهلة والتحليل التوافقي لبناء المعاجم، وبعدها في القرن ١٤م مع ابن البنا المراكشي سيصبح السند النظري للرياضيات مستمدًا من القرآن الكريم نفسه، وبذلك كل النقاش الذي كان رائجًا عن العلوم هل هي دخيلة أم أصيلة انتهى.

أما الفلسفة فهي تبحث في الغاية من الوجود الإنساني انطلاقًا من إعمال العقل، وبذلك فدارس العلوم الشرعية سيعود له ذلك التوازن بين العقل والنقل الذي كان سائدًا في المراحل المتقدمة من حضارتنا الإسلامية، التوازن بين العقل والإيمان، بين فكر التقليد والتسليم الذي بنيت عليه الأمور الشرعية والفكر العقلي الذي سيمكنه من الانفتاح والتلاقح الفكري مع الإنسانية بثقافاتها ومعتقداتها المختلفة.